المؤلفون يغيرون الدنيا

الحياة مشروع نضع تخطيطاته منذ نبدأ الوجدان وندرى ما نفعل . أو هى خارطة نأخذ فى رسمها مدة سبعين أو ثمانين سنة . فنحن المسئولون عن إتمام هذا المشروع أو رسم هذه الخارطة . ومع أننا نعرف من السيكلوجية الحديثة أن سلطة الأبوين ، ووسط العائلة ، وطراز المجتمع الذى نعيش فيه ، وتراثنا البيولوجى — نعرف أن لكل هذا أثره فى تكويننا وتوجيهنا ، فإن النظر إلى الحياة باعتبارها مشروعاً يخطط أو خارطة ترسم ، هذا النظر يستحق الاعتبار . ويجب أن تكون له مكانة فى الطاقة النفسية لكل إنسان . وإذا كانت « الوجودية » تجعل من الفرد ، المسئول الأول عن أعماله ، وتزعم أن هذا فلسفة ، فلا أقل من أن نسلم نحن بهذا الزعم ونهدف منه لا إلى الفلسفة ، ولكن إلى البناء الأخلاقى .

وحسن فى الأخلاق أن نقول إننا مسئولون عما نفعل . وفيما يلى بعض الخطوط التى أنقلها إلى القارئ الشاب عن مشروع حياتى أو خارطتها . فقد يكون فيها عبرة صغيرة إلى جانب الزيد الكثير .

بدأت أرسم خارطة حياتى حوالى عام ١٩٠٦ حين ساء الوسط العائلى وكان يتعقبنى بالعذاب رجل « نيوروزى » جعلنى أبيت وأصبح فى كرب لا يطاق .

ففررت إلى أوربا . وهناك انبسطت لى آفاق ، وحلمت أحلاماً ورأيت رؤى ، وشرعت أدرس اللغتين الفرنسية والإنجليزية ، وأختلط بعناصر جديدة فى المجتمعات والعائلات ، وأقرأ من الكتب ما يشع النور

فى عقلى ويبعث الشجاعة فى قلبى . فقررت من ذلك الوقت ، وأنا حوالى العشرين ، أن أكون متمدناً ومثقفاً . وقب مضى على نحو خمس وأربعين سنة وأنا أعانى الخصومات بسبب هذا القرار السرى !

رأيت شعوباً حرة لكل منها الكلمة العليا التى تتضح فى الانتخابات البرلمانية . ورأيت مشاكل الشعب تدرس فى البرلمان الذى له وحده حق تعيين الوزارات وإسقاطها . ورأيت جرائد تعالج المذاهب وتناقش الساسة ورأيت الاجتماعات التى يجتمع فيها الرجال والنساء ويبحثون فيها مشاكل العالم . ورأيت البيت النظيف ، والشارع النظيف ، والكتب العديدة ، والمكتبات المجانية . واختلطت بكل ذلك ، وتحدثت إلى الفرنسيين والإنجليز . وشرعت عندئذ آخذ بأساليب المتمدنين ، وأهدف إلى أهدافهم ، وأدرس وأتعلم وأجول وأتأمل . . .

وعرفت ، فوق ما عرفت ، أن المرأة يمكن أن تكون إنساناً حرًّا لا يختبئ من الدنيا وينظر إليها من صير القفل ، ولكن يواجهها فى شجاعة ، تتعلم وتعمل وتتحمل المسئوليات .

ورأيت جمالا فى الحب بين الشبان والفتيات . . رأيت التمدن ! وعنيت أكبر العناية بتعلم اللغتين الإنجليزية والفرنسية ، واتصل عقلى عن سبيلهما ، بأكبر العقول القديمة والحديثة . وكثيراً ما كنت أسهر الليل كله حتى الصباح ، وأنا فى لذة الحماسة بقراءة كتاب لنيتشه أو قصة لدستوفسكى أو كتاب للعقليين أعداء القرون المظلمة .

والتحقت بالجمعية الفابية . ورأيت برنارد شو فى لحمه ودمه . وكانت هذه الجمعية تومئ فى بداية هذا القرن إلى منتصفه . وكانت دعوتها إلى الخير والبر ترافقها دعوة أخرى إلى الشرف والشجاعة . وسمعت من منبرها رجالا ونساء من الإنجليز يقولون : « يجب أن نخرج من مصر »

فأحببت الإنجليز . . وكرهت الا ستعمار .

ورأيت بين أعضائها رجالا ونساء يقبلون على الأدب الروسى ويدرسون المشاكل التى خلفها داروين ، ويبحثون « تنازع البقاء » ومعانى « العنصرية » ويتعمقون الطبيعة لاستخراج ما فيها من أخلاق، من تنازع أو تعاون .

ورشحت نظرية التطور إلى وجدانى وتشبعت بها ، فصارت مزاجى وأسلوبى . وكبرت قيمة الإنسان فى نفسى ، لأنى عرفت تاريخه الماضى فى مئات الملايين من السنين كما صرت أحس بتاريخه القادم فى المئات من السنين أيضاً . وتحملت بهذه المعرفة مسئولية وأحسست ديناً . ولم ينقص من قيمة هذا الدين أننى وقفت على مئات الخرافات التى وقع فيها الإنسان لا . . بل إن هذه الخرافات قد زادتنى احتراماً وحباً للإنسان ، إذ هى كانت محاولاته المتكررة للوصول إلى الحقائق . فقد انتقل من السحر إلى العلم ، ومن النجامة إلى الفلكيات ، ومن الكهانة إلى الضمير ، ومن ذلق الرق إلى شرف الإنتاج .

وكان أكبر جزء فى « مشروع » حياتى أنى احترفت الثقافة ، فكانت حرفة وهواية معاً ، لا أبالى ما فيها من تعب وعرق . وقد بنيت بها شخصيتى . وأنضجت بها وجدانى . واستعطت أن أنسلخ من عقائد الطفولة ، وأن أصل إلى اليقين الجديد بهداية داروين وأينشتين . وأصبح عقلى عالمياً عاماً أحس صداقتى لنهرو وخصومتى لتشرشل . وأعنى بدراسة الصحارى ، واحتمال زراعتها فى آسيا وأفريقيا . وأفكر فى مستقبل الأحياء ، وأخشى انقراض بعضها . أجل . أحس أن العالم كله قد أصبح وطنى ، ليس لى حق التفكير فى مصالحه فقط ، بل على هذا الواجب . وثقافتى لذلك ليست عربية أو إنجليزية أو فرنسية ، وإنما هى عالمية . هى فى التاريخ وعلى مستوياته ، قديمة ووسيطة وعصرية ،

مهما اختلفت لغاتها أو مؤلفوها .

ومع أن ثقافتى قد فصلت بينى وبين الكثير من الناس لاختلاف مستوى بينا ، فإنها بسطت لى آفاقاً شاسعة من الفرح والأمل والتأمل والعبرة. فجعلت حياتى أكثر حيوية ، وحبى للطبيعة أحم وأعمق ، وفهمى للكون ، أوفى وأنور .

وقد عرفت هذا الفرق بينى وبين سائر الناس حين وقفت أمام الديناصور قبل أربعة شهور فى متحف التاريخ الطبيعى فى باريس . فإنى وقفت عنده وجعلت أدور حوله وأتأمله وأتخيله أكثر من ساعة . وكنت أرى بالطبع الهيكل العظمى فقط لهذا الحيوان الذى كان يعيش على أرضنا قبل نحو مائة مليون سنة ، وكان أكبر من الفيل يزيد عليه فى الحجم نحو أربعة أضعاف . كان لا يختلف كثيراً من السحلية أو الورنة ، وكان يبيض مثلهما . وقد انقرض لأنه كان جسما بلا مخ أو بمخ صغير يفضله مخ البطة أو الكلب ألف مرة . فلما تغير مناخ الدنيا ضاقت حياته . فعجز ومات وانقرض . . .

وقد بقيت شهوراً أقرأ وأفكر فى موضوع الديناصور . ثم فى ماضى النوع البشرى ومستقبله بعد إذ دخلنا فى العصر الذرى ، هذا العصر الخطر الذى تكاد تتغير فيه وجهة التطور بإبادة الإنسان ، ثم تحيا الأرض بعد ذلك نحو مليون سنة فى الظلام ، إلى أن يكون الشمبنزى قد تهيأ للسيادة والتسلط عليها !

ومع أنى احترفت الأدب والعلم والثقافة ، فإن هذه جميعها هى عندى حياة كفاح أكثر مما هى حرفة . ولذلك أنا لا أبالى ما يقال عن أسلوب الكتابة ، ولكنى أبالى أسلوب الحياة . ولا أعبأ ببلاغة العبارة ، ولكنى أعنى بأن تكون الحياة بليغة ، بحيث نحيا متعمقين متوسعين .

ومع أنى ألفت نحو خمسة وثلاثين كتاباً فإن كتابى الأول الذى عنيت بتأليفه هو حياتى . هذا المشروع ، هذه الخارطة ، التى رسمتها والتى أعود إليها من وقت لآخر بالمحو والتنقيح والتصحيح . بل إن الكتب التى ألفتها هى فصول من كتابى الأول ، من حياتى .

وليست حياتى هذا العمر القصير الذى أحياه بدمى ولحمى . وإنما هى تعود إلى ألف مليون سنة مضت . ألم أكن سمكة فى يوم ما ؟ ألم أعش على الشجر فى وقت ما ؟ لقد حمل جسمى آثار هذه الملايين من السنين الماضية ولا يزال بعض هذه الآثار واضحاً ، أراه بعينى إلى الآن كما أرى بعينى وأسمع بأذنى كلمات مصر الفرعونية وآثارها فى العقائد العامية بل الشعبية .

وكذلك ليس هذا الماضى هو كل العمر ، فإنى أحمل من الاهتمامات بمستقبل البشر ما يعد هموماً شخصية لى . لأنى أدين بنظرة ، كدت أقول عقيدة ، التطور . ولذلك لا أطيق عبث الأطفال الذين يقيدون حرية الفكر أو يكرهون الكتب أو يؤخرون الصناعة أو يستمسكون بالخرافات والتقاليد المؤذية ، إذ هم أعداء التطور .

ومن أجمل الإحساسات التى أستمتع بها فى فترات اليأس ، والتى تحيل هذا اليأس إلى رجاء ، أن مؤلفاتى وأفكارى ، ومنهجى وكفاحى ، كل هذا لن يموت بعد موتى . إذ هو سيبقى ويؤثر ويوجه ويفتح النوافذ للنور .

وأنا بذلك أتجاوز حياتى . وأحيا بعد موتى .

وقد قرأت أكثر من ألف كتاب . وأخصبت الكتب حياتى ، وجعلتنى مثمراً مضيئاً ، ولكن الكتاب الأول الذى له فضل الصياغة والتوجيه لشخصيتى هو كتاب داروين « أصل الأنواع » فإنه زاد عمرى

من سبعين سنة إلى ألف مليون سنة . وجعلنى أحس الوجدان ، ليس على هذه الأرض فقط ، بل إزاء الكون كله بنجومه وكواكبه وشظايا ذراته وأحس أن للطبيعة أخلاقاً .

هذا هو مشروع ، خارطة حياتى . فما هو مشروعك؟ كيف رسمت ، كيف ترسم ، خارطة حياتك أيها القارئ .

هناك زعم أو وهم يقول بأن الساسة يغيرون الدنيا بالاستعمار والحروب والمعاهدات . وقراءتنا المتوالية للصحف تعمم هذا الزعم أو الوهم ؛ إذ أننا نجد الأسماء البارزة للساسة ، ونقرأ أخبار الحرب الكبرى الأولى ثم الحرب الكبرى الثانية فيتأيد هذا الزعم أو الوهم .

وليس شك فى أن الحروب والمعاهدات تغير — وقد غيرت — الجغرافية السياسية للأقطار . كما أنه ليس شك فى أن المباشرين لهذه التغييرات كانوا من السياسيين أو العسكريين ؛ ولكن هذه التغيرات لم تكن تصل إلى صميم النفس البشرية .

ومع ذلك عندما نتأمل ونتعمق الأسباب والبواعث لهذه الحروب نجد أنها كانت ثمرة أو نتيجة لابتكارات علمية قام بها مفكرون اخترعوا الآلات ، أو ابتكروا الأساليب ، أو ألفوا الكتب لإعلان نظريات جديدة .

اعتبر هاتين الحربين الكبريين الأخيرتين ، فإننا نسمع فيهما عن رجال السياسة ورجال الحرب ، ولكن هؤلاء الرجال قد باشروا هاتين الحربين فقط ولم يكونوا السبب لإثارتها . لأن السبب يرجع إلى الآلة البخارية التى أخرجها رجل مفكر هو جيمس واط فى عام ١٧٧٦ . ذلك أن هذه الآلة قد عممت الإنتاج الكبير ، فى المصنوعات فاحتاج هذا الإنتاج الكبير إلى الحرب والاستعمار .

وما زلنا نحن فى حرب واستعمار بسبب هذه الآلة التى أحدثت ، ولا تزال تحدث ، مزاحمة دموية بين جميع الأمم الصناعية .

والمعنى والدلالة هنا أن السياسى والعسكرى قد صار كلاهما فى أثر المفكر المخترع الذى انبعث إلى التفكير بقوات اجتماعية أخرى .

وقد غيرت الحربان الأخيرتان تخوم الأقطار ، أى غيرت الجغرافية السياسية . ولكنها لم تغير الاتجاه البشرى أو الاتزان النفسى . فالأوربى الآن هو الأوربى الذى يعيش قبل سنة ١٩١٤ من حيث إيمانه أو طموحه أو تفكيره أو عاطفته .

ولكن الدنيا تغيرت بالكتب ؛ وعندنا على ذلك المثل الأكبر . فإن كتب الدين قد غيرت النفس البشرية إذ عينت لنشاطها اتجاهاً وأكسبتها أهدافاً لم تكن لتعرفها من قبل . وهذا الخلاف الخطير القائم ، الذى قد يؤذن بالحرب الكبرى الثالثة بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية ، كتاب ألفه كارل ماركس . وهنالك عشرات من الكتب الأخرى لها مثل هذا الأثر أو ما يقاربه .

ولكن المؤلف المبتدع لا يبنى على الهواء أو يفكر فى الخواء . ذلك لأنه يعيش فى مجتمع معين يكسب منه عواطفه ويتجه اتجاهاته . فإذا كان ذكياً تبلورت فيه بعض الاتجاهات البازغة ، فصار يميز بينها ويختار أحسنها ، فيدفعها بتفكيره ، ويزيدها بياناً وقوة حتى تتغلب على غيرها من الاتجاهات . وهو بهذه المثابة يتفاعل مع مجتمعه ، فينشأ على أوضاعه ثم يعود فيحاول نشأة جديدة له ، أى للمجتمع .

وهناك كتب قد غيرت نفوسنا كما لو كانت ديانات جديدة . بل إن الاختلاف بشأن نظرياتها يشبه إلى حد كبير الاختلاف الدينى فإن المختلفين على كتب نيتشه فى مذهب القوة يحتدون ويتعصبون . وكتاب

داروين عن أصل الأنواع لا يزال يحدث مصادمات ذهنية بين التقليديين والابتداعيين . فهو كفر مظلم عند أولئك ، وهو رؤيا مثيرة عند هؤلاء

وإنى واحد من أولئك الذين تغيروا بنظرية داروين . . . لأن التطور عندى مذهب سام ، قدس نفسى وغيرنى ووجهنى . وهو ليس عندى تفكيراً فحسب ، وإنما هو إحساس وعاطفة وحب وروحية . فقد كان سبينوزا يقول بالوحدة الوجوديه على نحو من المذاهب الصوفية الشرقية ، ولكنه فى ذلك لم يستطع سوى إيجاد الفكرة والفلسفة إذ لم يكن هناك من الأدلة المادية الحسية ما يثبت قوله . أما نظرية التطور فإنها قد غلفت عقولنا ثم استقرت فى عواطفنا ، فهى إحساس وشهوة تنبض بهما عروقنا وتخفق بهما قلوبنا .

وإنى حين أقعد تحت ظل شجرة خضراء وأستسلم للأفكار الخضراء أحس ، بدافع من هذه النظرية ، بتلك الوحدة الوجودية حتى لأقول كما كان يقول ذلك القديس المسيحى : أخى الطير وأخى الشجر وأخى الوحش . بل أحس كأنى أريد أن أنكب على الأرض كما كان يفعل « اليوشا » فى قصة « الأخوة » لدستوفسكى . . هذه الأرض الطيبة ، هذه الأم القديمة .

وهذا كتاب واحد من عشرات الكتب التى غيرتنى . ولم يقتصر التغيير على العقل إذ قد تجاوزه إلى النفس . . فتغيرت رؤياى للدنيا وتغيرت نفسى ومزاجى وعاطفتى . وهو تغيير يحسبه الجاهل كفراً وأحسبه أنا إيماناً .

وهناك كما قلت عشرات من الكتب البذرية التى تنمو وتتفرع وتتوالد فى كثرة لم يكن يتوقعها حتى مؤلفها .

اعتبر الفكرة البذرية فى أحد مؤلفات برنارد شو ، وهى أن البشر

يجب أن يهدفوا إلى استنتاج السبرمان الذى سوف يتفوق علينا ذهناً وروحاً وجسما بمقدار ما نتفوق نحن على القردة . ما أطيبها من فكرة وما أبرها من مذهب إنها مذهب من أرقى المذاهب البشرية الجديدة .

أو اعتبر الفكرة البذرية فى كتاب أينشتين . هذا الكون الدائرى ، وهذه الطاقة الذرية ، وهذه المادة التى تذوب فى الطاقة ، وهذه الطاقة التى تتكاثف إلى المادة .

بل اعتبر هذه القوة الجديدة فى هذا العلم الجديد : « علم الطاقة الذرية » . فإن المفكرين الذين أحزنهم وهد ضمائرهم إلقاء القنبلة على هيروشيما يسمعون الآن فى طرب محاولة الروس نقل المياه التى تذهب عبثاً وخسارة إلى المحيط القطبى الشمالى إلى بحر قزوين المتاخم لإيران حيث تروى خمسة ملايين فدان تستحيل من صحراء قاحلة كالحة إلى أرض نضرة تبتسم بالخيرات .

وكل هذا من أثر الكتب . إنها لكتب مقدسة هذه التى تغير الدنيا وتغير اللفتة البشرية ، كتب داروين ، ولامارك ، وأينشتين ، وتولستوى ، وبرناردشو ، وغاندى وأمثالهم من الذين يرسمون لنا خطوات الفهم والشرف نحو المستقبل . والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين ، وأكل وهضم من موائدهم ، يبصق بصقة الاحتقار على دعاة الرجعية من الكتّاب التافهين . .

والذهن الذى تربى على هؤلاء المؤلفين وأمثالهم لا يستطيع أن يتسامح فى جريمة القتل أو الفسق أو البطش أو الخيانة . ولكنه يعرف أن هناك جريمة تعلو على جميع هذه الجرائم فى الخسة والنذالة والحقارة والخيانة ، هى الحجر على الذهن البشرى ومنعه من التطور بتعيين الكتب التى لا تقرأ .. هذه هى الخيانة الكبرى للإنسانية .

والحكومة التى تجترئ على مثل هذه الخيانة ، فتمنع كتاباً قيماً من الدخول إلى بلادنا ، أو من الطبع أو التداول ، هى حكومة تخون الإنسانية وتنتهك الفكر البشرى المقدس . وهى بهذا الانتهاك تقاوم الفهم والذكاء عند أبناء الشعب كأنها تحاول أن تجعلهم بالداء أغبياء .

* * *

من الأسئلة التى يضعها كاتب سخيف لقراء سخفاء هذا السؤال : لو أنه حكم عليك بالانفراد سائر عمرك فى جزيرة أو سجن ، أى كتاب كنت ترغب فى اقتنائه حتى تأنس أو تنتفع به ؟

وسخف هذا السؤال يرجع إل أن العقل العصرى الراقى قد أصبح عقلا مركباً يحتاج إلى التناقض والتناسق ، وإلى المنطق والإيمان ، وإلى الخيال والتعقل ، وإلى التحليل والتركيب ، وإلى الحقائق الموضوعية والأفكار الذاتية . وكل هذا لا يمكن أن يحويه كتاب واحد .

ونحن نختار الكتاب فى العادة كى نتزيد فى معارفنا ، ولكن المعارف الموضوعية هى المادة الخامة للثقافة . إذ ليست الثقافة معارف فقط ، وإنما هى موقف واتجاه وعواطف وعادات فى الحياة والممارسة الفلسفية . وصحيح أن كل هذا ينبنى على المعارف الموضوعية ، ولكن هذه المعارف هى الدرجات الأولى أو الأسس التى نبنى عليها حياتنا الفلسفية .

وهناك من الأذكياء من حظوا بمركبات نفسية تبعثهم على الاستطلاع ، فيجدون فيها الإيحاء والتوجيه دون الحاجة إلى من يرشدهم . ولكن معظم القراء يحتاجون إلى المؤلف الذى يثير الاستطلاع ويبعث إليهم بالخمائر ويوجه ويرشد ، إما لأنهم ليسوا على درجة عالية من الذكاء المتسائل ، وإما لأنهم قد خلوا من تلك المركبات النفسية التى صادفت غيرهم لاختبارات أو كوارث وقعت بهم فكانت المنبه والمحرك لنشاطهم الذهنى .

والمؤلف العظيم الذى يعلمنا هو ذلك الذى يستنبط من المعارف موقفاً فلسفياً جديداً ، أو خطة واتجاهاً جديدين ، للفكر البشرى . والكاتب هو الذى يوجهنا أو يغيرنا ، وأحياناً يتغير القارئ لأنه انساق فى موجة جديدة قد أحدثها كاتب عظيم قد لا يعرفه هذا القارئ ولكن الموجة التى مست غيره قد انتهت إليه فأثرت فيه وأحدثت وقعاً جديداً فى نفسه وعقله .

وليس كل منا ، كما قلنا ، قادراً على الاستنباط الفلسفى من المعارف. أو ليس قادراً على الاستنباط الأمثل . ولذلك نحن نحتاج إلى المؤلفين المستنبطين الذين يبسطون أمامنا آفاقاً جديدة ، أو يرشدوننا إلى دلالات أخرى غير ما تعودنا ، أو يبرزون لنا الفكرة الإيمائية من بين العشرات من الفكرات المألوفة .

وقد تغيرت الثقافة بهؤلاء الكتاب الإيمائيين من عصر لآخر . وبعض العصور يساعد على هذا التغيير ، لأنه بمركباته الاجتماعية المتغيرة ينشط الذهن بل أحياناً يلهبه . فى حين أن العصر الزراعى مثلا يعمم الركود ، فلا ينبه المؤلف . ولذلك يكثر مؤلفو التاريخ ودعاة التقاليد فى المجتمع الزراعى الراكد . أما المجتمع الصناعى أو التجارى المتغير فإنه يبعث المؤلف على بحث الأخلاق والعقائد والأفكار ، وقد يهتدى فى هذا البحث إلى ما يلائم من خطة أو فلسفة أو وجهة جديدة . وهذه هى النهضة .

وحيث تكون النهضات ، كما فى إيطاليا فى القرن السادس عشر ، أو فرنسا فى القرن الثامن عشر ، نجد التساؤل والاستطلاع . ثم الاستنباط تحليلا وتركيباً . فالمؤلف يسلط النور والحرارة معاً على المجتمع المتغير الذى يعيش فيه ، فيؤلف عن وجدان اجتماعى وإحساس روحى واختلاق فنى . وقد يحدث من ذلك أحياناً اختلاط وفوضى ، ولكنهما

ليسا أمارة الانحلال وإنما هما علامة النشاط فى مجتمع يمرح مرح الطفولة التى تزخر بالحياة .

وهذا بعكس المجتمع الزراعى حيث ركود التاريخ والتقاليد . فإن مثل هذا المجتمع لا يربى المؤلف المجدد ، بل هو قد يمنع الكتب التجديدية الأجنبية من الانتشار ، ويحظر التفكير فى ميادين دينية أو اقتصادية أو اجتماعية . إذ هو كالمريض يكره الحركة ولا يتمنى أكثر من الهدوء ، ولو كان هدوء الموت . ذلك لأنه لا يجد فى هذا التجديد ما ينبهه تنبيه الصحة ، ولكنه يجد فيه ما يزعجه بل يزلزله .

وعلى القارئ أن يختار الكتب كما يختار المعلمين والأصدقاء الذين ينشد فيهم النور والنار معاً . وهذه الكتب هى التى تخرج به عن مألوفه . وكما يخرج الفقير الذى يعيش فى زقاق محدود إلى الحقول ، فينتعش ويتنفس الهواء الجديد ، كذلك يجب على القارئ أن يخرج عقله من المعارف المألوفة ، أى من الطريق الدهس ، إلى تلك الآفاق الرحبة حيث النور والهواء المنعشان . أجل ، وحيث الوعورة فى الطبيعة البكر التى تبعث على التفكير البكر الوعر .

ولكل عصر مناخه الثقافى ، ولكننا نعيش فى مصر فى مناخ لا يلائم القرن العشرين ، وإنما يلائم القرن العاشر . أجل نحن فى عقم ثقافى . ومن هنا كان تخلفنا الاجتماعى والاقتصادى . ومن هنا أيضاً تفاهة التفكير ، فى المفكر التافه ، حين يقول إن الطربوش شعار وطنى أو إن المكان الطبيعى للمرأة هو البيت ، أو حين يتحدث عن الكم الطويل والكم القصير ، كأن هذا الموضوع يرتفع فى اعتباره إلى مقام المشكلة الفلسطينية .

ومرجع هذا أن هؤلاء المساكين لم يرتقوا بكتاب توجيهى ينقلهم من الركود إلى النشاط ، ولذلك كثيراً ما أقعد إلى أحد هؤلاء فأجد أنه

قد بلغ الستين من السن الزمنية ، ولكنه لا يزيد على صبي فى العاشرة من حيث النضج السيكلوجى . .

ولا أستطيع أن أقول إن الكتب العربية ترتفع إلى مقام يتيح لها تخريج الرجل الناضج الذى يتساءل ويستطلع ، وإن كان هناك قليل من الكتب المترجمة قد يؤدى هذه الخدمة . وقد كان فى مقدورنا أن نترجم نحو مائة كتاب عالمى من تلك الكتب التى غيرت المجتمع ووجهته . ولكن مجتمعنا الزراعى الحاضر يكره هذا التغيير وهذا التوجيه . ولذلك أقول مرة أخرى إننا فى عقم ثقافى لا نلد ولا نتوالد ، ولذلك أقول أيضاً فى صراحة مؤلمة إن القارئ المصرى لن يكون متمديناً ، على ذكاء نشيط وعلى ثقافة عصرية ، إلا إذا درس لغة أوربية واستمد منها حاجته من الكتب العظيمة والمؤلفين العظماء الذين يستنبطون الفكرة الخصبة من المعارف الخامة فينعطف التاريخ ويتغير وجه الأرض . وهؤلاء هم المؤلفون الإيمائيون .

وقد قرأت فى حياتى مئات الكتب التى زادت وجودى فى الدنيا والتى نحوت وتربيت بها . وقد اخترت من مؤلفيها بضعة عشر كان لهم الأثر الأكبر فى ترتيب ذهنى وتنظيم ثقافتى . ولكن اختيارى لهم لا يعنى أنى أشير على القارئ أن يقرأهم ويعرفهم ، لأنى إنما أردت أن أبسط له بعض الأسباب والنتائج فى تكوين شخصيتى ، وأن أشير إلى الأعلام البارزة فى رحلتى الثقافية عبر عمر قد تجاوز السادسة والستين . وبعض هؤلاء المؤلفين قد عرفتهم قبل أربعين سنة . وإنى بالطبع لا أذكرهم هنا إلا لأنهم كانوا اختباراً عميقاً أثر فى نفسى طوال هذه السنين . وللقارئ أن ينتقد ، وأن يعرف من إصاباتى كيف أصبت ، ومن أخطائى كيف أخطأت . ثم بعد ذلك عليه أن يستخرج العبرة ثم يستطلع ويتساءل ويختار . ثم يشق طريقه بنفسه .